

١٤ — تجربة

ليس (١) فى نجاحها شك ولا ريب ، فيجب أن تستغل إلى أقصاها ، وهى هذه التجربة التى عمد إليها رئيس الوزراء ليتبين ويتبين الذين يؤيدونه : أيمكن أن تجرى الأمور فى مصر على وجه من الوجوه دون أن تكون فيها وزارة قائمة ؟ عمد رئيس الوزراء إلى هذه التجربة فنجحت نجاحا باهرا ، لا مرأى فيه ! سافر فى الصيف الماضى وسافر بعده بقليل جماعة من زملائه الوزراء ، فلم يضطرب أمن ، ولم يفسد نظام ، ولم تزد الأزمات الوزارية تعقدا ، ثم عاد وعاد معه زملاؤه الوزراء ، فلم يزد الأمن استقرارا ، ولم يزد النظام ثباتا ، ولم تتقدم الأزمة الاقتصادية خطوة قصيرة أو غير قصيرة فى سبيل الانفراج . ثم أرسل رئيس الوزراء جماعة من زملائه إلى بيوتهم ودعا رئيس الوزراء جماعة من أصفياه ومن أصدقائه إلى مكاتب الوزراء فلم يتغير من أمر مصر شيء .

ثم مرض رئيس الوزراء ، وأعجزه المرض عن النهوض بأعباء الحكم والاستقلال بأثقاله ، بل عن التفكير فيه ، فلم يضطرب أمن ، ولم يفسد نظام ولم تشتد أزمة ، ولم يتغير من أمر مصر شيء . ثم رد رئيس الوزراء جماعة من زملائه إلى بيوتهم ودعا مكانهم جماعة من أوليائه وأصفياه ، فلم يتغير من أمر مصر شيء ، ثم ظل المرض ثقيلا الوطأة على رئيس الوزراء يمنعه من تصريف الأمور كما ينبغى ، وألم المرض بوزير الخارجية فلم يتغير من أمر مصر شيء ، ثم سافر رئيس الوزراء بعد غد إلى أوروبا ليستشفى ، ويسافر ثلاثة من الوزراء إلى أوروبا ليلهوا ويتروضا ، ويسافر وكيل المالية وكبير المستشارين الملكيين ليشتروا فى المؤتمر الاقتصادى ، ولن يتغير من أمر مصر شيء .

وإذن فقد نجحت التجربة نجاحا باهرا ، لا سبيل إلى المرأى فيه ، وإذن فيجب أن تكون لنا عقول تعى ، وقلوب تشعر ، وشجاعة تمكننا من إعلان ما نرى ، والدعوة إلى ما نعتقد ، والجهر بأن هذه التجربة لا ينبغى أن تذهب عبثا ، بل لا بد أن نعتبر بها ونستفيد منها . ونقترح فى جرأة وحزم أن تستغنى مصر عن الوزارات ، وأن تقتصد ما تنفقه على هذه المناصب والذين يشغلونها من نفقات

أساسية وإضافية ، ومن نفقات ظاهرة وأخرى خفية ، فإن الرجل العاقل ، والشعب العاقل لا ينبغي أن ينفقا أموالهما إلا إذا لم يكن من إنفاقها بد ، أو إذا كان فى إنفاقها شيء من اللذة والنفع له خطره الذى يدعو إلى أن ينفق المال عليه .

وقد أقام رئيس الوزراء ووزارته الدليل على أن أمور مصر تستطيع أن تجرى دون أن ينهض بها الوزراء ! فليست الوزارة إذن أمرا لا بد منه فى مصر ، فلا ينبغي أن تنفق فى سبيله الأموال ! وما نظن أن مصر تجد لذة قوية ، أو منفعة ظاهرة فى أن تكون لها وزارة كما لغيرها من البلاد وزارات ! وإذن فليست الوزارة ترفا خليقا أن نطمع فيه ، أو نتهالك عليه ، أو تنفق فى سبيله الأموال ، وما نظن أن مصر شديدة الحرص على أن تمنح وزراءها ما تمنحهم من المرتبات لينعموا هم ويشقى أبنائهم . وما نظن أن مصر شديدة الحب لوزرائها هؤلاء ، تؤثرهم بالعطف والبر ، وتصفيهم بالمودة والخير ، وتنفق عليهم هذه الأموال الضخمة التى تستطيع أن تنفقها على آلاف من الجياع وأشباه الجياع الذين يتفرقون فى أقطار الأرض ، وتلم بهم الكوارث وتعبث بهم الخطوب ، ويزورهم المرض المهلك ، ولعله لا ينصرف عنهم حتى يصطحبهم معه ليقدمهم هدية أو قربانا إلى الموت !

وأنت تستطيع أن تمضى بهذا التفكير إلى أبعد من هذا المدى ، فمصر لا تستطيع أن تستغنى عن الوزراء وحدهم ، ولكنها تستطيع أن تستغنى عن عدد ضخم من الرؤساء وكبار الموظفين ، هؤلاء الذين يغيبون فلا يفسد شيء ، ويحضرون فلا يصلح شيء . هؤلاء الذين يلم بهم المرض فتستقيم الأمور ، ثم تعود إليهم العافية فتستقيم الأمور . هؤلاء الذين يختلفون إلى دواوينهم إذا ارتفع الضحى ، وينصرفون عنها إذا أقبل الظهر ، ويجلسون فى مكاتبهم باسمين ، يتحدثون إلى الأصدقاء من قريب ومن بعيد ، ويظهرون سلطانهم على طائفة من الموظفين ، وعلى طائفة أخرى من الخدم ، ويدبرون بالتليفون مرة وبالمناقشة مرة أخرى هههم إذا أقبل المساء ، أو تقدم الليل ! تستطيع مصر أن تستغنى عن الوزارة أو أن تستغنى عن عدد ضخم من هؤلاء الرؤساء وكبار الموظفين .

بل أنت تستطيع أن تمضى فى التفكير إلى أبعد من هذا المدى ، فقد عاشت

مصر من غير وزارة إلى آخر القرن الماضي ، وعاشت من غير هذا العدد الضخم من كبار الموظفين إلى أواخر القرن الماضي أيضا ، وعاشت من غير برلمان إلى أن تقدم هذا القرن الذي نحن فيه والمصريون إذا سألتهم عن رأيهم في حياتهم الحاضرة ، وفي حياتهم بعد تأليف الوزارات ، وبعد إنشاء المناصب الكبرى ، وبعد إنشاء البرلمان ، أجابوك بأن الفرق بين هاتين الحياتين ليس عظيما ، ولعله إلى الشر أقرب منه إلى الخير ، فقد كانوا في حياتهم الأولى أشقياء وهم يعلمون أنهم أشقياء ، مستعبدين وهم يعلمون أنهم مستعبدون . أما الآن فهم أشقياء ويقال لهم إنهم سعداء ، وهم مستذلون ويقال لهم إنهم أحرار .

فمحتنتهم الآن مضاعفة ، لأنها تمس حياتهم ، وتمس تقديرهم لهذه الحياة ، وشقتهم الآن مضاعفة لأنهم كانوا في العصور الماضية يشقون وليس لهم في السعادة أمل ، أما الآن فهم يشقون ويأملون ، ولا يجدون إلى تحقيق آمالهم سبيلا .

وفيم إنشاء الوزارات والمناصب والبرلمانات إذا لم تكن هذه الوزارات والمناصب والبرلمانات وسائل إلى إسعاد الشعب وإصلاح أمره ، وإشعاره بأنه كان شقيا فسعد ، وكان ذليلا فعر ، وكان عبدا فأصبح حرا ، ومن ذا الذي زعم أن الوزارات تنشأ ليستمتع بها الوزراء فيقيموا مترفين ، ويسافروا مترفين ؟! ومن الذي زعم أن المناصب الكبرى تنشأ ليتخذها أصحابها وسيلة إلى الشرف والنعيم ؟! ومن ذا الذي زعم أن البرلمانات تنشأ ليسود النواب والشيوخ ، ويخطب النواب والشيوخ ، ويقبض النواب والشيوخ مكافأتهم آخر الشهر ، ويظل الشعب من الذلة والشقاء وسوء الحال حيث كان ؟!

كلا ليست مناصب الحكم غايات ، وإنما هي وسائل ، فإذا استحالت إلى غايات وجب أن تزول ، وإذا استحال أكثرها أو أقلها إلى أشياء لا تنفع ولا تفيد وجب أن تزول ، وليست المسألة في حقيقة الأمر أن يقال إن في مصر مناصب أو ليس فيها مناصب وإنما المسألة أن يقال إن هذه المناصب نافعة للشعب فتبقى ، أو غير نافعة للشعب فتزول .

في هذا الاقتراح شيء من الجرأة ، ولكنني أتحدى كل مصري منصف له

ضمير حسّاس ، وقلب زكى ، وأسأله أيتحدث بهذا كله إذا خلا إلى نفسه أم لا ؟ أيشكو من هذا كله إذا خلا إلى أصفياه أم لا ؟ وأنا واثق بأنه لن يستطيع أن يجيب : لا ، بل هو مضطر إلى أن يجيب نعم ، وإذن فنحن نكره على هذا اللون من ألوان الحضارة الأوربية إكراها . ولسنا أعداء لهذه الحضارة الأوربية ، بل نحن نحب منها الشيء الكثير ، ونحرص منها على الشيء الكثير ، ولكن بشرط أن ننختاره نحن ، لا أن يُختار لنا ، وأن نسيره نحن ، لا أن نسير فيه ، وأن نلائم بينه وبين حاجتنا ومنافعنا ، لا أن نضيع في سبيله حاجتنا ومنافعنا .

وإذن فليخط رئيس الوزراء خطوة أخرى جريئة صريحة ، يردنا بها إلى حيث كنا قبل أن تنشأ الوزارات والمناصب والبرلمانات . إنه إن يفعل يحفظ علينا كثيرا من أموالنا الضائعة ، وهو إن يفعل يرخنا من كثير من هذه الآمال المتعبة ، وهو إن يفعل يزل عن مصر شرا كثيرا ، شر التنافس حول المناصب ، والتهالك على الوظائف ، والتضحية بالمنفعة العامة في سبيل المرتب والمكافأة ، وفي سبيل الجاه والسلطان ، وهو إن يفعل يجنبنا كثيرا من مواطن الفساد الخلقي والسياسي الذي كدنا ننتهي منه إلى ما لم ينته إليه غيرنا من الشعوب !

ولكن رئيس الوزراء لن يفعل من هذا شيئا ، لأنه لن يلغى منصبه بيده ، ولن يمحو سلطانه بيده ، ولن يرد نفسه رجلا من الناس بعد أن أصبح عظيما يقيم فترزة الدولة ، ويرحل فترزة الدولة ، ويمرض فترزة الدولة ! لن يفعل رئيس الوزراء شيئا مما تطلب إليه ، فلا بد إذن من أن تحتفل كما احتملنا ، ومن أن تصبر كما صبرنا ، ومن أن تؤمن بأن لنا وزارة وإن لم نكن في حاجة إليها حتى يأذن الله بأمر من عنده .

ومن يدري لعل هذا الأمر أن يرد كل شيء إلى نصابه ، وأن يعطى مصر وزارات تثبت أن لها نفعا وغناء ، ووزراء يؤمنون بأنهم لم يتولوا المناصب لينعموا بها ، بل ليحتملوا فيها الجهد والعناء في سبيل هؤلاء الذين رفعوهم إلى هذه المناصب ، وألقوا عليهم أمانتها الثقيلة .

من يدري ؟ لعل هواء أوروبا لا يمس رئيس الوزراء حتى يشعره بأن من العسير عليه أن يجمع بين الراحة التي يحتاج إليها ، والتعب الذي لا يقدر عليه ، فيريح نفسه حقا ، وإن في راحته الصحيحة لراحة لمصر !..